السبـــــــت 12-12-2009

834-كيف استطاع نجيب محفوظ أن "يحِب": كل هذ الحب ؟!!

تعتعة الدستور

بعد غد، فى مثل يوم 11 الجارى سنة 1911، ولد إنسان مصرى فعلا، طيب ورائع وفريد، اسمه نجيب محفوظ. يشاء السميع العليم أن أرافقه قريبا جدا لمدة أكثر من عشر سنوات قبل رحيله، تعلمت منه، وما زلت أتعلم، تعلمت من كتاباته، ونقدها، ونقدى لها، ثم تعلمت من صحبته وريادته وحضوره وغيابه. فى بداية صحبتى له، ولمدة الثمانية أشهر الأولى، اعتدت أن أسجل يوميا بعض ما يتبقى فى ذاكرتى من لقائى معه، رحت أقلب فى تلك الأوراق فوجدت ما يستأهل أن أقتطفه نتعلم منه معا الآن، هكذا:

الجمعة 3 / فبراير / 1995

..... ثالث أيام رمضان، المكان جديد، لكنني أحسست أن الاستاذ اطمأن إلى الأماكن التي أقترحها وأعدّها، حضر أحد مريدى الأستاذ القدامى من الذين كانوا يواظبون على جلساته في قصر النيل، الصديق يوسف عزب، وذكّره بنفسه، وبالصحبة التي كانت تحضر تلك الجلسات، وكنت قد اتفقت مع د. زكي سالم على مثل ذلك ما أمكن ذلك، حين حضر "يوسف": تذكرت أنه كان قد قال لي أن الأستاذ لا يحب جمال عبد الناصر، انتهزتها فرصة لأستوضح ذلك مع استبعادى له، لعلمى بقدرة الأستاذ على الحب بتشكيلات متعددة، هو لا يحب هكذا والسلام، علما بأنه لا يستعمل "كلمة الحب" إلا نادرا، هو يمارس الحب، يفعل الحب، لا يحكيه، كنت - غصبا عنى - أقيس مشاعرى بمشاعره، وحين أعجزعن أحب أحدا ممن يجلسون معنا، ثم أجده أحيط نفس هذا الشخص بكل رعاية ويتحمله بكل صبر، يملؤنى الغيظ من نفسى، وأفرح - مغيظا- بهذه القدرة التى لا أملكها: **"مِنْ كلٍّ بحسب ما هو، وإلى كلٍّ بحسب ما يحتاج"**، دون أدنى مجاملة أو تعال. كيف هذا؟ كيف يستطيع ذلك؟

فى كثير من الجلسات اليومية، وخاصة جلسة "فرح بوت" كل ثلاثاء، يجيء ذكر عبد الناصر، مصحوبا بزيادة صفة "العظيم" من يوسف القعيد، كان الأستاذ يشاركنا الضحك على الجانبين: مرة ويوسف القعيد متحمس أشد الحماس، ومرة وعماد

عبـودي أوحسن نـاصر مـنتقـدين حـاد الإنـتقـاد، لاحظت أن الأستاذ يـعرف عيـوب عبد الـناصر بـشكل محدد وواضح، ولـكني لم ألاحظ حكايـة أنـه لايحبه هذه، سألـته مـباشرة: هل تحب عبد الـنـاصر، قـال بـلا تـرد، "نـعم أحبـه"، قـلـت لـه أنـا أعرف أنـك تحب كل الـنـاس، ولـكـنـي أسأل هـذا الـسؤال بـعيـدا عن الـسيـاسة وحتى عن أخطائـه وعن إنجازاتـه، أسأل عن شـيء لا أعرف لـه تـعريـفـا محددا، وهـو الحب 'هكذا' والسلام، قـال مـرة أخرى مـؤكـدا: "طبـعـا أحبـه، ألـيس زعيـمـا لأمتي؟ كيـف لا أحبـه !!"، قـلـت لـه – وأنـا أشعر بـسخفـي يـتـزايـد: أنـا لا أقـصد واجب أن يحب المواطن الـصالح زعيـمه أيـا كـان، ولـكـنـي أسأل تحديـدا عن شخص محدد، هل تحبـه؟ قـال من جديـد بحسم دون تـردد: "نـعم أحبـه"، واكـتـفـيـت بهذا الـقـدر ولم ألـفـت نـظر يـوسف، إذ يـبـدو أنـي أعجبت بهذا الـنـوع من الـعـواطف الـنـظيـفـة إعجابـا خاصا، خصوصا وأنـا أكـره عبد الـنـاصر كـرهـا خاصا، بـرغم اعترافي بـفضله أحيـانـا، إلا أن كم الـكـذب والـوصايـة الـلـذان وصلانى مـنـه وهـوٍ يـطل علـيـنـا من أعلـى، حـافظ على كـراهيـتى لـه هـو ومن ضلـــلَـه من مستشـاريـه الـذيـن لم يـنـتـبهوا إلى مـا فـعـلـوا ويـفـعـلـون حتى الآن، نجيب محفـوظ يـعرف كل ذلك، لـكـنه قـادر على مـثـل هذا الحب بـكل هذا الـصدق، رحت أبحث في نـفسي عن عـواطف إيجابـيـة نحو عبد الـنـاصر لأقـتدى بـشيـخنـا، فـمـا وجدت الا شفـقـة عليـه وهـو مـريـض فى آخر أيـامـه.....

(انـتـهى الـنـص الـقـديم، ولم أسجل فـيـه تـصالحى المحدود مع عبد الـنـاصر بـعد دراستى لملف حرب الاستـنـزاف)

تـشكـيـلات أخرى من الحب وصلـتـنى من نجيب محفـوظ خلال تـلـك الـسنـوات، قـبـلـتُ أغلـبـهـا، وتحفظت على بـعضهـا حين كـانـت تختلط عنـدى بجرعة مـفـرطة من الحريـة والـطيـبـة والـسمـاح والـديمقـراطيـة جدا، لـكـنى كـنـت أتـعلـم من جميع مـا أقـبـل ومـا أرفض.

ومن فـرط مـا بـلغنى من قـدرتـه على الحب، صالحنى على نـفسى، ونـاسى، وأيـامـى، كـمـا سجلت ذلـك فى عيد مـيـلاده الـثـانى والـتـسعين هكذا: (مع تحديث بـسيـط جدا)

صالحتَـــنِى شيخى على نـفسىَ حتى صرتُ أقـرب مـا أكـون "إلـيـه" "فـيـنـــا"،

صالحتَـــنِى شيخى على نـاسي، وكـنـت أشك فى بــــلـه الجماعة يُخدعون لـغير مـا هـم.

صالحتَـــنِى شيخى على حريـق، فجزعت أكـثـر أن أضيع بـظلِّ غيري.

صالحتَـــنِى شيخى على أيـامـنـا المرة مهمـا كـان مـنـهـا.

ذكـّـرتـنى شيخى بـأنّـا قـد خُـــلـقـنـا فى كـــبَـدْ

مـا دام كرّمـنـا لـنحملَ وعيـنــَا لـنكونـَهُ، كـدْحـا إلـيـهِ.